جدلية الانتماء والاغتراب في شعر صعاليك الجاهلية

أ.د/ شوادفي أحمد السيد علام
أستاذ الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بكفر الشيخ

توطئة

كثيرة هي الدرر التي ما فتئ تراثنا العربي يرفدنا بها أو يدعو إلى استجلائها ، ونفض غبار الزمن عنها حتى يصرح جوهرها النفيس عن نفسه ، ويعلن عن حضوره بشكل يخطب ود الناظرين من الباحثين .

وكثيرة هي الدراسات التي دارت حوله لتبرز نفائسه ، أو لتشير إلى روعته ووفرة عطائه وشدة حيويته ، ومع ذلك فإن هذه الكثرة لم تستطع بعد أن تضع الكلمة الفاصلة في كثير من جوانبه وقضاياه .

والمفرز الإبداعي لجماعة الصعاليك في المجتمع الجاهلي يشكل جانبا من هذه الجوانب التي ما زالت تحوج إلى النظر ، وتدعو إلى التأمل والتفرس ، وخاصة ما يمكن أن يوضع من هذا المفرز تحت مفردة القضايا المحورية في حياة أولئك الذين أظهروا حالة من الإقبال اللاهث على حياة التشرد العدمي في الفيافي المهلكات وهم يعلنون عن تخلص ــ يراه البحث زعما لا يقوى على الصمود أمام النظر الفاحص ــ من انتمائهم الذي كان إلى مجتمعهم الأول ؛ مجتمع بني الإنسان اكتفاء بالانتماء ــ زعموا ــ إلى عالم الوحوش الضواري.

والحقيقة الناطقة في الفعل الإبداعي لديهم هي التي تفضح هذا الزعم وتعريه حين تعلن عن كُنْه مبدعها الذي أضناه السعي بحثا عن الإنسان المضيع بين ركام قبلي ثقيل مرذول ، حتى أمكنه في النهاية أن يتوج صورة الإنسان المبتغاة بتلك الفضائل الإنسانية التي افتقدها في السياق الاجتماعي الذي كان يحكم مجتمعه الأول .

تلك لمحات تحاول صفحات هذا البحث تجليتها وإبرازها من خلال الالتحام ببعض المفردات الفنية المحورية في إبداعات بعض أبناء هذه الجماعة التي أثارت إعجاب المجتمع العربي الجاهلي ، وأقضت مضجعه في آن.

وقد عمدنا في طرحها إلى نمط التكثيف والإيجاز والتركيز يقينا بجدوى ذلك ؛ فحسب البحث الجاد أن يثير الفكرة ، ويقيم التساؤلات حولها لتثرى بالنقاش وتلاقح الأفكار ، والعزم معقود على إخراجها في كتاب يتسع لتفاصيلها ، وتيسير المنعم المنان إلى ذلك هو المأمول .

وبالله التوفيق ، ومنه السداد والرشاد .

أ.د/ شوادفي أحمد السيد علام

من بين إيقاعات ذل الحرمان، وقهر الامتهان الذي تجرعت كؤوسه المترعة شرائح بشرية بعينها في المجتمع الجاهلي انبثقت شجرة التمرد الملحمي ، تعلوها لتغذيها نشوة الاندفاع البطولي نحو إثبات ال " أنا " الفاعلة المحركة ، أو المحاولة تحريك منظومة العادات والتقاليد الجائرة السائدة إلى الوجه الآخر، وذلك في نمط من إخلاص للمشاعر الذرويَّة عارم قوى فائر؛ ليعلن ذلك كله عن ظهور حركة الصعاليك التي تمكنت بحق من أن تقدم لنا صورة حية فاعلة من لهاث النفس الأبية وراء لذة الاستغراق في البحث عن لحظات المجد الصاعق الصاعد إلى المجهول، وكل ذلك قد كان دونما تهيب للأخطار الكامنة، ولا تخوف من الأهوال القائمة ، ولا ندم على الجروح الماثلة الناصبة ما كان ذلك في سبيل إثبات الذات وفرض الكيان ، بل ما كان ذلك في سبيل تحقيق الحضور على مستوى الفعل المحرك المزيل لبلادة المعتاد، أو السائد في المجتمع من قهر وذل واستبداد.

لقد رفض هؤلاء هذه المفرزات الاجتماعية التي كانت تجعل حلوقهم بالغصص مترعة ، وكان خروجهم على المجتمع ، والثورة في وجهه مرحلياً ؛ إذ كان خروجهم هذا نتيجة لأسباب بعينها ، مما يعني – فيما نرى – أن رفض المجتمع قد كان – برغم حدِّيَّته – آنياً ، لا يعني الانبتار الكامل بقدر ما يعني العزلة الوقتية التي ارتبطت فعالياتها بأمل التغيير والتحول بالمجتمع في المجتمع .

رفض هؤلاء أن يتركوا مهملين في منطقة العيش عند الناس ، لا معهم أو بينهم ، كما رفضوا استمراء الإحساس بأن مكانهم – في مجتمعهم – بغيض نابٍ ، فانطلقوا إلى تقديم طرح – على مستوى القول أو الفعل – فائر بنزغات الإنسان المقبل– في حيوية– على

المجهول، للتفتيش بين أوراقه وأروقته ؛ بحثاً عن الإنسان الذي ضاعت ملامحه بين أنياب منظومة العادات الجائرة، والتقاليد الظالمة التي احتكم إليها المجتمع.

خرج هؤلاء على المجتمع ، ليقيموا لأنفسهم مجتمعاً آخر، ساقهم إلى رسم صورته ذلك الهاجس الجمعي الذي كانوا يعيشون في ظلاله قبلاً، والذي لم يستطيعوا التخلص منه بمجرد ثورتهم ، أو خروجهم، فجاءت صورة المجتمع الجديد (مجتمع الصعاليك) قريبة من صورة المجتمع الأول في ملامحها العامة ، وإن كانت تخالفها في بعض الدقائق والتفاصيل اليومية الكثيرة ، كما تخالفها في الفلسفة التي تحتكم إليها، الأمر الذي جعل الدراسات الكثيرة لا ترصد في عالم الصعلكة إلا الـ " أنا " في مواجهة الآخر، ولا ترى في التصعلك إلا تحللاً من الالتزامات القبلية التي كان الصعاليك ينضوون تحت لوائها قبل التصعلك، وإلا تمرداً وانتحاءاً وتجاوزاً يعرب عن حالة من الانبتار النفسي- تواكب الانفصال الجسدي- عنيفة، وبالتالي ما بقيت لدى أحدهم نأمة إحساس بالحاجة إلى دفء التواصل الاجتماعي، أو ما يمكن أن تحويه كلمة " الانتماء"، بل لم تذر لدى أحدهم إلا عنف الإحساس بالغربة المادية، وضراوة الشعور بالاغتراب النفسي.

وانبناء هذه الدراسات على الواقع الذي طرحته الصورة الشعرية التي قدمها الصعاليك- في مجموعهم- والتي سلطت الضوء الكثير على التفاصيل والجزئيات التي كانت تحكم مجتمعهم ، والتي اتخذت من نبرة الواقعية ، والميل الدائم إلى اتخاذ النزعة التصويرية المشهدية ، أو الطبيعية سبيلاً قائما أحال هذا الشعر إلى ما يشبه المذكرات الشخصية اليومية ، بل اتخاذ ذلك- في أحيان كثيرة ومواقف عديدة-

غاية وهدفاً..، كل ذلك أضفى على هذه الدراسات التي خصصت لرصد التجربة الشعرية لدى الصعاليك صبغة المصداقية في التناول، والجدية في الطرح، والتعمق في النظر والدرس – فيما أتوقع – حين أرتنا الصعلوك منذ الوهلة الأولى خاضعاً لإحساس أو شعور الانتماء إلى هذا المجتمع الذي خرج عليه.

غير أن ذلك كله لا يعني– فيما أرى– انقطاع السبيل إلى إمكانية رؤية الصعاليك – أو بعضهم على الأقل – حال كونهم خاضعين للشعور المناقض ، وذلك من خلال بعض مفردات الصورة الشعرية التي خلفوها أيضاً ، والتي تقدم لنا هذا الصعلوك في صورة من لم يتخل عن انتمائه بهذا الشكل الحِدِّيِّ ، بل مارس فعاليات تحديات إثبات الـ " أنا " في ظل تواجد هاجس جماعية الانتماء ، حتى لم يستطع التفلت من سيطرة هذا الهاجس عليه ، وعلى الأقل في مواقف بعينها ، صنعتها ظروف خاصة.

ويقيناً لا جدال فيه – فيما نرى – أن الصعاليك حين خرجوا على مجتمعهم الأول لم يدخلوا إلى مجتمع جديد كل الجدة ، بل كان مجتمعهم الجديد هذا خاضعاً – بشكل عام – للسياق الثقافي الذي يحكم المجتمع القديم ، حتى ليعد مجتمعهم الجديد فرعاً للمجتمع العام ، وتعد الثقافة التي حكمت مجتمعهم – بشكل عام – ثقافة فرعية منبثقة من الثقافة المجتمعية العامة.

ومما قد لا يكون مجانباً للصواب إيجاز ما تمخضت عنه معاناة الصعاليك لتجارب عالم الصعلكة في مجرد تقديم فلسفة جديدة إذ ذاك في العدل الاجتماعي وقودها الإغارة على مخائض أرباب المخائض والمتمولين البخلاء سبيلاً للقضاء على أخطر مشكلة اجتماعية ، وهي

الفقر ، والتفنن في ذكر تفاصيل الحدث اليومي ، وما كان فيه من أخطار محدقة ، وأهوال مخيفة مرعبة أحوجت الصعلوك إلى أن يكون فارساً من طراز خاص ، يتحلى بقدرات قد تتجاوز المعتاد المألوف في العدْو وسرعة الانفلات، .. و..[١] خاصة إن لم تكن خارقة للمألوف والمعتاد في أحايين كثيرة وعديدة..

ثم بقي الصعلوك بعد ذلك خاضعاً للثقافة الخاصة المتفرعة عن الثقافة العامة.

وللاستئناس- لا أكثر- نذكر بأن الغزو والإغارة للسلب والنهب ، والتي كانت تشكل فعاليات الحدث اليومي بل المحوري في حياة الصعلوك ليست إلا واحدة من أبرز الركائز التي كان المجتمع الجاهلي- في عمومه- يتخذها شرعة في الحياة.

نعم أضفى الصعلوك على هذه الركيزة حدية خاصة ، استمد معالمها من التجربة الشخصية اليومية المباشرة ، حتى أطلعنا عليه - في ممارسته لها - وكأنه يعانق الألم الوهاب للحياة ، أو كأنه يسعى بهذه الممارسة الحادة إلى انتجاع قمم المجد في ذرى الشامخات ، معتمداً في ذلك على عوامل أو مؤهلات خاصة كان منها الحسي ، كما كان منها المعنوي.

وليس الاستقصاء لمفردات حياة الصعاليك التي استمدوها من المجتمع العام مما يتسع له نطاق طرح كهذا، فقط أردنا الاستدلال على

---

(١) ورصدت بعض الدراسات الجادة ذلك تحت عنوان " أسلحة الصعلكة ". انظر: شعر الصعاليك. منهجه وخصائصه. د/عبد الحليم حفني ص٢١٣- ٢٨١. طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.

أن السياق الثقافي الذي ارتضاه الصعلوك نسقاً يحكم مجتمعه الخاص إنما كان – في عمومه – منتزعاً من السياق الاجتماعي للمجتمع الذي لفَظَه.

وهو ما يؤسس لاستفهام كبير، يبحث في سبب ذلك خاصة وأن الصعلوك قد رفض المجتمع الأول لأن نفسه لم تتكيف فيه ولا معه ، فكيف به يستمد منه بعض أُطُرِ حياته الجديدة إن لم يكن كلها؟

ألا يشير ذلك إلى أن الصعلوك دخل عالم الصعلكة وهو يستصحب معه الارتباط النفسي بالمجتمع الأول ، والزمان الأول ، والشعور بالحاجة إلى دفء التواصل في ظلال النسق الاجتماعي الأول ، مما يشير إلى بقاء جذر الانتماء في حناياه وإن دفعه الغضب إلى إعلان ما يضاد ذلك كله؟

وهل يستسيغ مجتمع أي مجتمع ما كان إنسانياً معنى الحياة والشعر والمعرفة إلا إذا كان ذلك كله ممزوجاً بالتذكر، أو قائماً على شيء من الارتباط ببعض ما قد كان...؟

إن الشعور بالفقد ملمح ذو حضور في الجملة الإعرابية الصعلوكية، وهو الذي انتآى بالصعلوك– فيما نظن– إلى اصطناع ذات مضخمة، تتمكن من الوقوف صامدة أمام ضراوة حياة التشرد العدمي في صحراء ذات وديان موحشة، ومنعطفات مرعبة، عزب عنها الإنسان، فصارت مرتعاً للضواري من الوحوش والصعاليك حسب، وهو الذي انتآى بالصعلوك– أيضاً– إلى أن قطع (زعم) كل الأواصر التي تربطه بعالم الإنسان.

لم يستطع الصعلوك– في معالجة قضية الانتماء لديه– أن يجاهر بقول القائل لقومه:

سأتركُ ما أردْتُ لما أردْتُم ، وردُّك مَنْ عصاك من العناء

وإن كان على المستوى النفسي الداخلي يتبنى مضمون هذا القول، وتهفو منه الروح إلى إعلانه واقعاً ممارساً ، ولذلك فإن الذي أعلنه الصعلوك إنما يشف في بعض جوانبه- على الأقل- عن حالة أخرى مغايرة ؛ فهو مثلاً حين يقدم لنا الصعلوك النموذج والمثال بأنه الذي:

يبيت بموْماة، ويمسي بغيرها وحيداً، ويَعروْرَى ظهورَ المهالك
يرى الوحشةَ الأنسَ الأنيس، ويهتدي بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوابك(١)

إنما يعرب لنا من طرف خفي عن جوعه النفسي إلى دفء التواصل مع الآخرين، وهو ما جعل المفردات اللغوية تفضح لهفته الداخلية إلى الأنس بالإنسان، هذا إذا ارتضينا حقيقة أن بعض المفردات اللغوية في الشعر والذي يرسم منه المواقف الإنسانية العاصفة خاصة إنما تساق من منطلق أنها ترصد بؤرة الإشكالية التي عاشها الشاعر ساعة احتدام الانفعال وهو كذلك بلا شك.

من هنا كان حضور كلمة " وحيداً " التي غللت بها المفردات المكونة للبيت الأول على أنها من بكاء الحال. وصوت التنوين الذي وشحت به هذه الكلمة إنما يعمل على حمل النفس إلى العيش في عالم متباعد الأطراف، متنامي الأرداف من الهموم والأحزان أن فقد ذلك الإنسانُ الذي ارتضى التشرد ظاهراً دفء العيش في الجماعة العامة، وأضاع عبق التواصل الإنساني ، فصارت الوحدة بؤرة الألم والضنى ، وصار العيش فيها إشكالية للروح لا يمكن الصبر على مواربتها

(١) البيتان من قصيدة لـ: تأبط شراً. انظر: موسوعة الشعر العربي. اختيار: مطاع صفدي، إيلي حاوي ص١٢٢. شركة خياط للكتب والنشر ١٩٧٠م. وأم النجوم الشوابك: المجرة؛ لاشتباك النجوم فيها.

أو إخفائها في ركامات وهم النفس أو ادعاءاتها الواهية التي تعلن شكلا من أشكال التفتي الاقتدار ، أو تحت مزاعم التجلد والتماسك ، وما شاكل ذلك من السلوكيات النفسية التي يسعى الأُباة من بني البشر إلى الاستظلال بظلها من لفح هجير الأحداث وعصفها بالأرواح .

ولعل مما يغري بقبول ذلك تذكرنا أن أبعد الجذور غوراً في نفس العربي – والجاهلي خاصة – هو جذر الانتساب، وقد كان النسب يشكل معلماً بارزاً في السياق الثقافي الجاهلي عامة ؛ فليس من السهل والحال كذلك على الشاعر الصعلوك أن يتخلص من كل جذور الانتماء الضاربة بعمق في نفسه حتى إنه ظل يعيش حاضراً (عالم الصعلكة) وهو يحمل في أحشائه بعض بذور الماضي إن لم تكن هذه الأحشاء قد انطوت على الماضي بكل بذوره وثماره ، وإن كانت رؤاه الجديدة في العدل الاجتماعي تجذبه إلى حيث يكون المعلَن منه دوماً هو انبتار الانتماء إلى ثقافة هذا المجتمع الذي كان.

إنها الثنائية النفسية الضدية التي أخضعت نفس هذا المبدع لها تحت ضغط الظرف الذي شكلته فعاليات الواقع المأزوم الذي عاشه على كره منه .

والصعلوك في هذا الشأن يمثل الإنسان أي إنسان والشاعر أي شاعر، وأعني أنه كإنسان شاعر يعد جزءاً ".. من ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه ، يحاورها ويغنيها ، وقد يتمرد عليها ، ولكن لا مناص له من الانتماء إليها ؛ فهي التربة التي تغذوه ، وفيها يعيش ، ويترعرع.." (١)

(١) شعرنا القديم والنقد الجديد. د/ وهب روميه ص١٨١. عالم المعرفة. الكويت (٢٠٧) ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

من هنا وجدنا أبا الصعاليك عروة بن الورد يجادل قومه عن نفسه في صورة شكوى حارقة لرفضهم إياه في كل أحواله، ..... حال الفقر .... وحال الغني، ... حال الشباب..... وحال الشيخوخة[١]، وهو ما جعله ورفاقه مدفوعين دوماً إلى البحث عن الإنسانية في صميمها؛ عن الأمان والوفاء والإخلاص، و..، وغير ذلك من المرتكزات الإنسانية التي افتقدها في عالم الواقع ومن أهمها وأعلاها جزئية الانتساب والانتماء التي تحقق له الاحتماء، فذهب إلى عملية التعويض النفسي ممثلاً في الزعم بتحقيق ذلك في عالم الوحوش الضواري، فالشنفرى– مثلاً– يستبدل (زعم) ببني أمه– البشر– طوائف الحيوان التي رآها أكثر إنسانية من الإنسان[٢]وذلك بقوله:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم؛ فإني إلى قوم سواكم لأمْيَلُ
فقد حُمت الحاجاتُ، والليل مقمرُ ، وشُدّت لطيات مطايا وأرحلُ
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى، وفيها لمن خاف القِلَى مُتعَزل
لعمركَ ما بالأرض ضيقُ على امرئٍ سرَى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ
ولِي دونكم أهلون؛ سيدٌ عملّس وأرقطُ زهلولٌ، وعرفاءُ جيْأل
همُ الأهلُ؛ لا مستودع السر ذائع لديهم، ولا الجاني بما جَرَّ يُخذَل[٣]

(١) انظر الأبيات الدالة على ذلك في ص١٦٥ من: موسوعة الشعر.
(٢) حكمة التمرد. د/جابر عصفور ص ٧٤ مجلة العربي. ع: ٤٤٤ نوفمبر ١٩٩٥م.
(٣) موسوعة الشعر. ص: ٥٧، طيات: جمع طية، وهي ما تنطوي عليه النفس من حاجات وميول، والسيد العملس: الذئب الجريء على السير، وأرقط: يمر أملس، وعرفاء جيأل: ضبع ذات عرف طويل.

إن الشاعر في مثل هذه الأبيات يستميت في حث محيطه الاجتماعي إلى الرقي والسمو في تمثل ما توجبه حقيقة الانتماء إلى عالم البشر عليهم لأمثاله من الرجال أصحاب الهمم العالية، وذلك من طريق تذكيرهم بأنه ما يسعى إلى عالم الضواري بحثاً عن انتماء يهدئ روعه إلا على كره منه ، ولذلك يسعى إلى لفت أنظارهم إلى ما هم عليه من انحراف سلوكي .

وافتتاح اللامية بفعل الأمر الموجه إلى جماعة البشر، الذين هم قومه إنما يسعى إلى التنبيه على الغفلة، وإثارة اليقظة، وإعمال العقل قبل أن تضيع الفرصة .

وهو بذلك يقدم لنا الصورة الواقعية لحقيقة ما كان يعتمل في صدور الصعاليك من مشاعر خاصة بالانتماء الحقيقي لديهم ، فهم ما اغتربت ذواتهم إلا بسبب شدة الانتماء إلى المجتمع لديهم ، وافتقادهم – في المقابل – الشعور بالتواصل الإنساني ، وليس أدل على ذلك من هذه المفردات التي تترجم حاجة الشاعر إلى دفء الانتماء ، وروعة الإحساس بالتواصل مع الآخر ، وتأمل مثلاً قوله:

" بني أمي " – " الليل مقمر " (الأمر واضح، لا لبس فيه) –" لي دونكم أهلون، هم الرهط " .

هو يطلعنا على حقيقة أنه صاحب نفس كبرى ، إذ لم يكن من همها التمرد على المجتمع لذات التمرد ، ولكنها معنية بقضية ".. أخرى أبعد غوراً، وأشد مأساوية، إنها قضية الانتماء .

نحن أمام ذات أرهقها المجتمع الإنساني بظلمه وأذاه وبغضه ، فإذا هي تخلع (زعمت) انتماءها إلى هذا المجتمع، وتؤسس انتماءً جديداً لها إلى المجتمع الحيواني . إنها تغترب من عالم الإنسان، وتلوذ بعالم

الوحوش الكاسرة، فتكشف بذلك عن اغتراب قاس جريح، ولعل هذا السبب هو الذي جعل الشنفرى يشبه نفسه بالحيوانات الضارية وبالجن... ولعله أيضاً سبب هذا النداء: "بني أمي" الذي يجاوز به القبيلة إلى بني الإنسان عامة ، وهاهو ذا يخلع انتماءه إلى هؤلاء الأبناء جميعاً، ويلتحق بأشباهه من ذئاب الصحراء، ووحوشها الضارية .

... ويوضح الشنفرى أسباب انتمائه الجديد دون التواء أو غموض؛ إنها ثلاثة أسباب، هي:

صون هذه الحيوانات للسر " لا مستودع السر ذائع لديهم "، وتضافرها وتعاونها فيما بينها؛ فهي تنصر المذنب الجاني من أبنائها، ولا تخذله بسبب ما ارتكب من الجرائر ، " ولا الجاني بما جر يخذل"، وبسالتها وإباؤها وعزتها الشماء "وكل أبي باسل"، وهى لهذه الأسباب أهله وقومه، ويحاذر الشاعر أن يختلط هؤلاء الأهل بغيرهم، فيقول: "هم الأهل"، وتعريف خبر المبتدأ هاهنا يفيد الحصر.." (١).

وقد كاشفنا الشاعر بحقيقة إشكال نفسه مع المجتمع، وذلك حين نص على أن نفسه تأبي العيش في الأذى والذل والهوان :

ولكن نفساً مرَّةً، لا تقيمُ بي على الذأم إلا ريثما أتحول(٢)

هو يبحث عن إنسانيته وسط ركام من المواضعات الظالمة التي فرضها الآخر المتسلط، ذلك أمر مضْن للروح، مؤرق للنفس، ولذلك فإن مثلُه إذا تناول المرأة، فلن يبحث في تناوله لها إلا عن الإنسانة فيها؛

(١) في الأدب العربي القديم. د/محمد صالح الشنطي ص٢٠٣- ٢٠٤ دار الأندلس للنشر والتوزيع- حائل- ط: الثانية ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م

(٢) موسوعة الشعر ص: ٥٧ هامش: ٥.

إذ كان دأبه في حياته كلها البحث عن التواصل الإنساني الدافئ، والانسجام النفسي الحق، والحياة الكريمة التي يكون فيها الإنسان مع الناس وبينهم، لا عندهم أو تحتهم، أو متاعهم. ولاشك أن المرأة في عصره قد كانت تعاني استلاباً حاداً لإنسانيتها، وتسلطاً عليها، مسلحاً بأعراف وتقاليد وقيم تتسق مع نسق الحياة في العصر الجاهلي، وأفقها الاجتماعي الذي كان يرى الذكورة أهم وأنفع وأجدى .

إنه يذيع إعلان اغترابه بصراخ عال يمثله ها هنا على الأقل ذلك الحضور الوافر لضمير المتكلم بصيغه المختلفة، وهو إعلان وصراخ يواري به الحاجة الملحة إلى الإحساس بدفء الانتماء، فهو من طريق إعلان إيغاله في عالم الوحوش الضواري يرمي إلينا بالتفاتة نفسه وتعلقها بالحياة الإنسانية التي تتحقق دوما بوجود الآخر في ظلال مجتمع.... لكن في طهارتها وبراءتها من الغدر والتضييع والإهمال والخذلان و.. هو يعلن اغترابه، وهو مغرق في مواراة انتمائه إلى مجتمع الإنسان، إذ يضع ذاته معاكساً موضوعياً يضاد به المفهوم الجذري للأخلاق السائدة في المجتمع البشري.

ويرشح ذلك كله معجمه اللغوي في هذا الموقف والذي يفضح رغبته النفسية التي أبت إلا أن تصبغ الألفاظ بصبغتها الحقيقية، وإلا أن تؤكد على أنه صاغ هذا الشعر وبني الأم (قومه) ما برحوا يعيشون في نفسه .. في كيانه ، بل لهم الحضور الكامل في وجدانه: .." أقيموا بني أمي"..... تركيب لغوي ذو قدرة عالية على تجسيد الإشكالية التي يعالجها وعرض الأزمة التي يعاني ويلاتها في استماتة تعلن أن جزئية الانتماء لديه لا نزاع في عدم قدرته على الاستغناء عنها أو التفلت منها ؛ إذ اختار مفردة الأم بالذات لأن الأم مناط الرحم وأهم

سبب في القرابة ، وهي الأعلى تأثيرا في ميدان دفع الأولاد إلى الالتحام في ضفيرة التواصل والدفء بالاستقرار الجماعي يأتي الشاعر بكل هذه الدلالات في إطار سياق لغوي يدفع القوم إلى الترحل ؛ فقوله: " أقيموا ....صدور مطِيِّكم" يحمل دلالة أمرهم بالاستعداد إلى الرحيل ، وكأنه كان ينظر إلى المعنى الذي طرقه المتنبي فيما بعد في قوله :

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ألاَّ تُفَارِقَهُمْ فالرَّاحِلُونَ هُمُ

ولذلك جعل الشاعر هذا التعبير مفتتحاً أو مطلعا يمرر من خلاله الآلام التي اجتاحته أن صارت قضية انتمائه تعيش حالة الاحتضار، بل الموت من قبل المجتمع الذي يصر على دفعه عنه ، ونبذه منه .

الشاعر ها هنا يمارس العملية الشعرية من منطلق إدراكه حقيقة أن الشعر لا يشير إلى الأشياء بعينها ، ولكنه يوحي بها على ما هو معلوم مشتهر لدى الباحثين ، وهو ما ألمعت إليه بعض الدراسات ترسيخا لمعنى ماثل في نفوس كل العقلاء لا استحداثا لشيء لم يكن ، فكلماته من ثم لا تسعى إلى الرصد المفصل لمكونات الواقع الماثل أمام الأحياء ، كلماته أبدا لا يكون مهمتها تحديد الأشياء ، بل خلق جوها وإشاعة عبقها ، ولأن قضية الانتماء تصطرع جدلياتها في حنايا شاعرنا لم يجد بداً من التذكير، تذكير المجتمع بالأم ، والأم بالذات لأنها مناط الانتماء ، ورحم القربى[١] ، فليس ثمة كلمة أخرى قد توحي بإشكالية الانتماء وجدليتها في نفس الشاعر أو تخلق جوَّها ككلمة الأم

(١) السابق ص٥٨.

ولذلك تراه قد أخذ بيدنا إلى حيث نتمثل مطلبه النفسي الحقيقي من خلال تأمل ورود ألفاظ : (قوم ، أهلون ، الأهل) ذوات الدلالة الخاصة والقدرة الفائقة على بث ما يريد الشاعر ، والتي وردت بينها لفظة : " لأميل " تلك التي تشخص لنا الداء الحقيقي الذي صنع الشاعر قصيدته في أجوائه، فهي واردة في " عتبة " القصيدة، وهي بصيغتها الصرفية المعروفة (أفعل التفضيل) تؤكد على أن الميل الأول ، أعني الانتماء القديم لم ينبتر من فؤاد الشاعر ، فقط هو يعلن ــ فيما يشبه المكابرة – عن الميل الأفضل ، وذلك في نظر المتأمل المتفرس زعم مفضوح ؛ إذ ليس ثمة انتماء أفضل لدى الشاعر ولدى كل البشر من الانتماء إلى بني الإنسان عامة والأهل خاصة ؛ ولذلك تراه في النهاية يعلن أنه يفارق أهله وهو مفجوع بفراقهم ، حتى لا يغدو وكأنه قد "...أدان الإنسانية كلها، واستعاض عنها بمصاحبة الوحوش في البراري، وليس ذلك إلا إمعاناً في العودة إلى أصل الحياة وبراءتها الأولى..." (١).

إنه يقتحم بهذه المفردات أفق العلاقة الإنسانية ساعة إحساسه بتعرض علاقته بها للضياع ، بل الموت ، ولا يكون ذلك عادة من النفس البشرية إلا مع من يشتد ارتباطها به ، أو ما يكون متجذراً فيها.

والبيت الأخير:

---

(١) من شعراء الجاهلية ، كان فاتكا شجاعا صعلوكا خليعا ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ ، انظر : شعر قيس بن الحدادية. صنعة د/ حاتم الضامن . مجلة المورد . وزارة الثقافة . العراق .ص٢٠٤ والأبيات في ص ٢١٧ المجلد الثامن . العدد الثاني صيف ١٩٧٩م .الجبة : الدرع ،والكماة : جمع كمي ، وهو الشجاع المتكمي في سلاحه ، أي المستتر بالدرع ، والعوالي : الرماح .

هم الأهل، لا مستودع السر ذائع لديهم، ولا الجاني بمـا جـرَّ يُخـذل

أتى به الشاعر في محاولة لاهثة منه إلى تبديد ما قد يتولـد مـن إنكار أو دهشة لدى سامعه وهو يعلن عن تحوله _ في مجال الانتمـاء _ من ..... إلى ....، هو يتوقع أن يقابل بنكير كبير، فالانتماء إلـى عالم البشر أمر حتمي بل مصيري حتى ليُقابل أي انتماء غيره بـالنكير .. ولذلك تراه يلجأ إلى التعليل والتفصيل: " لا مسـتودع السـر ذائـع لديهم، و... " وذلك بعد الإجمال: " هم الأهل "، أو قـل يـرى نفسـه بموقف من تلزمه إقامة الحجة على دعوى نصيبها من القبول ضعيف، بل واهن خاصة وأنه قد أتى بالخبر ممتطيا صـهوة أسـلوب القصـر أو الحصر من طريق التقديم ، بما صير دعواه مثار الشك الكبير فـي آدميته.

ويضع الشاعر يدنا بخفة على موطن الألم ، أو يجمع لنا شـتات أزمته النفسية، فإذا هي متمثلة في الإحساس الذي أشرنا إليـه آنفـاً، إذ يقول:

وإنِّي كَفاني فَقْدَ مَنْ لَـيْسَ جَازِيـاً بحُسْنَى، ولاَ فِي قُرْبِه مُتَعـلَّلُ

ثَلاثَةُ أَصـحاب ؛ فُـؤَادٌ مُشَـيَّعٌ ، وأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وصَفْرَاءُ عَيْطَلُ(١)

هذا الزعم أو ذلك الانتماء الظاهري المعلن إلى المفـردات التـي تشكل حضوراً بارزاً في عالم الصعلكة ليس إلا مجرد تبَنٍّ لزعم ساقته المرارة، ودفع به التأزم والغضب، هو انتماء من لم يجد وسيلة للتطبب النفسي، أو التخفف من أثر ضراوة الإحساس بالفقد إلا أن يلجأ– نفسياً–

(١) السابق ص١٥٥.

إلى استدرار القوة الذاتية والمتخيلة، ليعيش حالة إيهام النفس بالقدرة على العيش دونما حاجة إلى دفء الانتماء إلا إلى الثلاثة أصحاب الجدد

كأنما الشاعر كان يمارس عبر هذا الفن لعبة الاحتماء النفسي بشكل فيه من المواربة ما فيه ، لكن النسق التعبيري يكشف لنا الرغبة الكامنة التي يسعى الشاعر بكل شعوره بالمرارة إلى سترها، وما جاء تقديم المفعول به المتمثل في المصدر واسم الموصول وصلته : " فقد من ليس جازيا .... الخ " ، وتصدير ذلك كله بكلمة (فقد) التي تجسد مصاب الشاعر وتُبَئِّر لنا أزمته إلا مبادرة من النفس إلى تحديد الداء ، ووضع اليد عليه ليتمثل الألم شاخصاً في المواجهة.

الإحساس بالفقد قد غدا يسيطر عليه حتى يكاد يأكله ، وهو يعيش أو يمارس مفردات عالم الصعلكة، بالرغم من الادعاء الذي أطلقه لينص من خلاله على أنه استطاع أن يبدّل (زعم) انتماء بانتماء، وأن يغيّر ولاء بولاء .

وهكذا دوما تنفلت الكلمات على ألسنة المأزومين مبللة بإيحاءات ورغبات النفس الحقيقية، وإن حاولوا حجبها بدافع الكبرياء، أو استجابة لمتطلبات العتو والتمرد، والانتحاء.

وما يلمح من أحاسيس المرارة النفسية الطاغية في أغلب أشعار الصعاليك ليس- فيما نرى- إلا مظهراً من مظاهر الجوع النفسي إلى دفء الانتماء ، أو التواصل مع البشر، يصدق ذلك على بعض تجارب الصعاليك إن لم يكن يصدق على مجموعها .

وأراك معي لا تشك في أنه من باب التعويض النفسي مثلاً أن الصعلوك لم يصحب الوحش في الصحاري المخيفات إلا بعد أن أَنْسَنَهُ، ولذلك لا تفتأ تجد أحدهم يبكي الأنس الذي كان، ويعلن عن جوعه

النفسي والقلبي إليه، وذلك على النحو الذي تجده مثلا في قول قيس بن الحدادية: (١)

فإن كانت الأيــامُ يا أمَّ مــالك تسلِّيكم عني، وترضــي الأعــاديا
فلا يأمَنَنْ بعــدي امرؤٌ فجْعَ لذةٍ من العيش، أوفجْعَ الخطوبِ العوافيا
وبُدِّلتُ من جــدواك يا أم مالكٍ طوارقُ هــمٍّ يحــتضرن وســاديا
وأصبحتُ بعد الأُنْسِ لابسَ جُبَّة أساقي الكــماةَ الدارعين العــواليا
فيوماي يومٌ في الحديد مسربَلا ، ويوم مــع البيض الأوانس لاهــيا

فمع الالتفات إلى ما يحمله البيت الثاني ها هنا من انحسار آمال الشاعر فيما يعود عليه وحده بالنفع يثيرنا البيت الرابع إلى الوعي بجوع هذا الصعلوك إلى الحياة الأولى ؛ لأنها كانت تشبع إحساسه بالانتمــاء إلى عالم الإنسان ؛ فبعد الأُنس الذي كان يحياه صار في عيش خشــن متخم بأحاسيس الوحشة .

ومن هذا الباب كان حديث أبي الصعاليك عروة بن الورد الــذي خط الطريق الأول إلى الصعلكة ".. وعيــاً شــعورياً واضــحاً، ولــده إحساسه بالغبن الاجتماعي الذي تلقاه فئة من الناس قُدِّر لها أن تعــيش خارج المجتمع لأسباب كثيرة..." (٢)، ومع ذلك تدفعه النفس المتلهفة إلى دفء الانتماء إلى شكوى الحال للوجود كله:

هم عيَّروني أن أمِّــي غريبــة، وهل في كريم ماجد مــا يُعيــر؟

---

(١) السابق ص١٦٥.

(٢) الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي. د/مصعب حسون الراوي ص٧١. طبع/دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. الأولى ١٩٨٩م.

وقد عيَّروني المال حين جمعتُه، وقد عيَّروني الفقر، إذ أنا مُقْتِرُ
وعيرني قومي شبابي ولمَّتي متى ما يشأ رهط امرئ يَتعير
حوى حي أحياء شتير بن خالد، وقد طمعت في غنم آخر جعفر
ولا أنتمي إلا الجار مجاور ، فما آخر العيش الذي أتنظَّر؟(١)

إنه يتهم قومه بجريمة نبذهم له، ورفضهم إياه، دونما سبب منطقي يقبله ذوو العقول الراجحة والأفهام السديدة ، ولم يك هذا الاتهام إلا مجادلة عن حقه في عوائد الانتماء إليهم؛ فالعبارات كلها– ما عدا الشطر الثاني من البيت الأول، والثاني من البيت الأخير– إنما جاءت في صورة الإخبار الذي يراد منه إعلان التحسر، ومن ثم إيقافنا على أزمته النفسية، ثم إفساح المجال للاستفهام الإنكاري، الذي يرصد الحيرة والتوتر والقلق النفسي اللذين تولدا من عنف الضيق بسبب لغز المواضعات الاجتماعية الظالمة، والتي تلعب بكينونة الإنسان ومصيره على هذا النحو الآثم، وقبل ذلك كله وضع المجتمع الظالم أمام مسؤوليته تجاه أمثاله من المتَهَضَّمين في المجتمع والمدفوعين عنه.

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. د/يوسف خليف ص٢٤٩. دار المعارف (الرابعة) سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (٨)، والأنس الطاحي: الحي المنتشر الواسع، والحلول : النزول، والعرمرم : الشديد والمسل جمع مسل: وهو مسيل الماء. والقول الأول من ميمية في مناقضة بينه وبين أبي الملثم الهذلي ، وكذا الثاني من لامية في الرد عليه. انظر كتاب شرح أشعار الهذليين. صنعة أبي سعيد السكري. ج١ ص٢٢٦، ٢٦٩. تحقيق/عبد الستار فراج، مراجعة/ محمود شاكر، طبع المدني مصورة عن الأولى

والشاعر يضع يدك على كلمة السر وراء تصعلكه وأمثاله ، فإذا بها تعلن عن حقيقة صعلكته ورفقاء دربه ، وإذا الحقيقة تعلن عن أنهم في الواقع النفسي ما رغبوا عن المجتمع ، ولمكن مجتمع كل امرئ منهم هو الذي نبذه ، و... " متى ما يشأ رهط امرئ يتعير ... " .

هكذا يعلن الشاعر عن حقيقة أن انتهاج الصعلكة ، وتبني عالمها لم يكن بإرادة ذاتية صرفة من أفراد جماعة الصعاليك بقدر ما كان انصرافا من المجتمع عنهم ، أو هكذا يبدو اتهام الشاعر للمجتمع ؛ إذ علق الأمر كله على مشيئة المجتمع ممثلا في رهطه : "متى ما يشأ رهط امرئ يتعير ... " : .

وفي تعبير يتشح بالحسرة، ويمتزج بالألم يرينا الشاعر نفسه باحثاً عن مفترق يخرجه من أزمته قبل أن يأكله اليأس:

ولا أنتمي إلا لجار مجاور ، فما آخر العيش الذي أننظر؟!

إنه حين يعرض جدلية الانتماء لديه يصوغ لنا أزمته متخلصاً من التجلد والتماسك الذي كان من أبرز مظاهر شخصيته كصعلوك، فتراه يقدمها لنا في غير ما غيبة للفظة الانتماء التي ترصد لنا مشكلته المحورية في هذا الموقف، وقد مهد الشاعر لعرض هذه الأزمة من طريق طرح صياغة: " وعيرني قومي " التي تسعى إلى تحريك العاطفة، وإثارة المشاعر، كأنه يتمسك بالمقولة العربية: " أنفك منك وإن كان أبترا "، أو التي اتخذها الشاعر وسيطاً للتبليغ، وتمرير المراد إلى المتلقي.

وهو بكل ذلك يذكرنا بحقيقة أن الإنسان منتم بطبعه، تلك الحقيقة التي لا يكون من الغريب- أما حضورها في الأذهان- النص على أن الصعلوك وإن أعلن عن استمرائه العيش في منطقة من الغربة المادية

والاغتراب النفسي حرجة أو حادة فإنه- وعلى المستوى النفسي- يظل مدفوعاً إلى البحث عن محله الذي كان بين الجملة الإعرابية في المجتمع الأول.

وإذن فإن الصعلوك لم تستقطبه حالة الاغتراب التي كانت أسبابها حاضرة بحديه واضحة في حياته إلى حيث تستغرقه تماماً، وإن صدق ذلك في شأن بعضهم فلن يصدق البتة في شأن الكل، وخاصة أن مجتمع الصعاليك لم تكوِّنه طائفة واحدة، فلم يتبق لنا- والأمر كذلك- إلا أن نقول: نعم " ...مثَّل شعر الصعاليك نزوعاً واضحاً نحو تشخيص التحديات التي تواجههم بوصفهم أفراداً يعيشون ظروفاً خاصة، غير أن المتتبع لهذا الشعر يلمس جانباً من العلاقة بين نزوعهم الفردي وأحاسيس الانتماء لديهم؛ فالسليك وإن افتخر بتصعلكه إلا أنه يستجيب لدواعي انتمائه القبلي بعد أن أحس بتعرض قبيلته لخطر الغزو، فيقول:

يكذبني العمران، عمرو بن جندب، وعمرو بن سعد، والمكذب أكذب
سعيت لعمرو سعي غير معجز ، ولا نأْناً لوَ انني لا أكذب
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتُها كراديس يهديها إلى الحَيِّ موكب
كراديس فيها الحوْفزان، وحولها فوارس همام، متى يدع يركبوا
تفاقدتم هل أنكرن مغيرة مع الصبح ، يهديهن أشقر مغرب

إن تحديات الأنا في ظل جماعية الانتماء كانت هاجس الشعراء الصعاليك خاصة، والشعراء العرب عامة.." [1]، ولذلك رأينا السليك في الأبيات السابقة يترجم عن حقيقة إدراكه ما تتطلبه عملية الانتماء إلى الأهل والعشيرة من السعي في حمايتهم ، والنصح لهم ، وتحذيرهم من

(١) السابق ص٢٤٩- ٢٥٠.

الخطر الداهم أو المكر المتمترس وذلك في شكل يجعلنا مطمئنين على الأقل إلى تقرير أن الشاعر الصعلوك كان مستقطباً بأثر النفس والمجتمع من قبل حالتين نفسيتين متناقضتين، هما حالة الانتماء والاغتراب وأن الحالتين كانتا تتنازعانه ، فتسلبه قراره وهدوءه.

وكان ظل ذلك حاضراً في أهم الدراسات التي تعرضت لتجربة الشعر في عالم الصعلكة، حيث رصدت بعض ما كان كامنا في نفس بعض رموز عالم الصعلكة من مثل عروة بن الورد، والسليك بن السلكة السعدي، وصخر الغي الهذلي الذي يعلن عن عدم انبتار انتمائه القبلي.. في مقطوعتين يناقض فيها خصمه أبا الملثم الهذلي ، فيهدده بكثرة قومه، وبأنهم ينصرونه ، ويأبون له الضيم:

وخفِّض عليك القول، واعلم بأنني من الأنَسِ الطاحي الحلول العرمرم

أبت لي عمرو أن أضام ومازن وقرد، ولحيان، وسهم؛ فسلِّم

ويعلن أن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم، فيسرعون لنصرته، كما تسيل الشعاب بالماء:

أبا الملثم إني غير مهتضم إذا دعوت تميماً سالت المُسُلُ.." (١)

فهو يؤكد على ديمومة انتمائه وهو يخوض غمار عالم الصعلكة وفي الظن أن أسماء القبائل التي سردها في ميدان النص على عدم تخليها عنه، أو عدم خذلانها له، بل رفضها أن يحل به ضيم ما أتت هنا إلا وسيلة من وسائل التأكيد على هذه الديمومة، ولذلك لا نستغرب أن نجد حاجزا الأزدي الذي أغرق في عالم الصعلكة ظل يعيش حالة الاندماج الواضح (كما يقول أستاذنا الدكتور يوسف خليف رحمه الله)

(١) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه. د/عبد الحليم حفني ص٣٢٠- ٣٢١.

حتى أنه كان ".. يعبر بلسان قومه كما يعبر أي شاعر جاهلي قبلي، يفخر بهم، فيذكر أنهم كرماء، ويعتز بأبيه وعمه اللذين أسديا للقبيلة يدين بيضاوتين في يومين من أيامها.

والطريف حقاً أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب، فيحيي صاحبته، ويدعو لها بالسلامة، ثم يصفها، ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه بما يشير إلى ردة فنية إلى العالم الإبداعي الذي كان في المجتمع العام، وذلك في معادلة موضوعية للانتماء الذي لم ينبتر ، أي بما يشير إلى حقيقة أن الشخصية الفنية لدى الصعلوك كانت تتعانق مع حقيقته الشخصية الواقعية ، ثم ينتقل انتقالاً مفاجئاً- كعادة الشعراء القبليين أيضاً- إلى الحديث عن قومه، وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التي انتصروا فيها:

إن تذكروا يوم القري فإنني ... بواء بأيام كثير عديدها
فنحن أبحنا بالشخيصة واهنا ... جهاراً، فجئنا بالنساء نقودها
ويوم كراء قد تدارك ركضنا ... بني مالك، والخيل صعر خدودها
ويوم الأراكات اللواتي تأخرت ... سراة بني لهبان، يدعو شريدها
ونحن صبحنا الحي يوم تنوفة ... بملمومة يهوي الشجاع وئيدها
ويوم شروم قد تركنا عصابها ... لدى جانب الطرفاء حمراً جلودها
فما رغمت حلفاً لأمر يصيبنا ... من الذل إلا نحن رغما نزيدها.." (١).

نعم قد ينظر إلى هذا الطرح الشعري على أنه من باب حرص الشاعر فنياً على أن يرد في ميدان المناقضة- بما يلزم أو يناسب – من قول، لكن تبقى- مع هذا- حقيقة ارتباط الشاعر بما كان وتحصُّنه أو

(١) السابق ص٨٧..

احتمائه النفسي على الأقل به ، ومن ثم حرصه علـــى إعـــلان وجـــود الانتماء حقيقة حاضرة في كيانه أو قائمة بنفسه قائمة ، يعلن عنهـــا – مثلا – ذلك الهاجس الجمعي الذي ظل يلح على بعضهم ، ويترجم في صورة سلوك ، أو نزوع ، أو تعبير فني.

ثم إن المناقضة– في عمومها هنا– ليست إلا لونـــاً مـــن ألـــوان الخصومة التي تفرزها أولاً خصومة بين قبيلتين، وكل ذلك يؤكد علـــى أهمية التوقف عند حقيقته ودلالته ، وإدراك أن الشاعر الصـــعلوك لـــم يتخل لحظة عن توظيف انتمائه الذي لم يتخلص منه في تمرير مواقفـــه النفسية والإبداعية ، بل لم يستطع المجتمع أن يتخلص من حقيقة انتماء الصعاليك إليه وبالتالي إلزامهم القيام بواجبات هذا الانتماء؛ فالمعروف أن ".. بعض الصعاليك كانوا من العمد التي تقوم عليها قـــوة قبيلـــتهم، كججدر بن ضبيعة البكري، ومالك بن حريم الهمداني، وعروة بن الورد العبسي، وقيس بن منقذ السلولي.. وهذا النوع من الصـــعاليك شـــارك قبيلته في كل ظروفها، من حيث صـــراعها مـــع القبائـــل الأخـــرى، وانعكست مشاركته في شعره، وكان من أثر هذه المشاركة والارتبـــاط بمصير القبيلة وظروفها إحساس الفرد بأنه يستمد جانباً من قوته من قوة القبيلة نفسها، وهذا هو المصدر الأساسي للفخر بالقبيلة والاعتزاز بها.

وهذا المعنى نجده بارزا في شعر أفراد من الصعاليك ، مـــنهم : مالك بن حريم ، وأبو الطمحان القيْني ، وعروة بن الورد ، وقيس بـــن منقذ.." (١).

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. د/يوسف خليف ص٢٤٨.

لقد كانت الحاجة تفرض على المجتمع أن يولي الصعلوك من الاهتمام – في أحايين كثيرة – ما يجعله مبقياً على شعوره بالانتماء إلى هذا المجتمع ؛ إذ من المأثور عنهم قولهم : ما خلا قوم من السفهاء إلا ذلوا"، وقد كانت قوة الصعاليك من العتو بحيث تبث الرعب والفزع في قلوب الأعداء ، ولذلك " ..أحاطهم المجتمع بهالة من الرهبة والإعجاب والإكبار، حتى أصبحوا أمنية القبائل، تتمنى كل قبيلة أن يكون من بين أبنائها من يشبه هؤلاء الأقوياء العتاة الذين ترتعد منهم فرائص البادية..".

فليس ثمة والأمر كذلك إلا النص على حقيقة أن الصعلوك خاض غمار عالم الصعلكة أو عاش الاغتراب والأحشاء منه مطوية على جذر الانتماء الذي لم ينبتر يوماً، وأنه عاش شعور الـ " أنا " في ظل هاجس جماعية الانتماء، يصح ذلك– على الأقل– في شأن بعضهم إن لم يكن يصدق على مجموعهم، فالآخر يولي الـ " أنا " لدى بعضهم بعض التواصل الذي يجعل انبتار الانتماء تماماً أمراً غير وارد.

يصدق ذلك كله على المستوى الاجتماعي أو الواقع العملي ، كما يصدق على الواقع الفني الإبداعي الذي ظل نسيجة متصلا اتصالا لافتا بالوقع الفني للإبداع العام ، وهو ما أوجد حالة من الاستغراب الدافع إلى التساؤل ومن ثم البحث لدى أستاذنا الدكتور خليف– رحمه الله تعالى رحمة واسعة–، والتي بلورها قوله:

".. الباحث في شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبلية، وتتسم بسمات الشعر الجاهلي القبلي، وهي مجموعة– وإن تكن قليلة متضائلة– تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحللوا

من التزاماتهم القبلية، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثر بها، فكان طبيعياً أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التي نراها في سائر الشعر الجاهلي.

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة، فمن الطبيعي أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بدورين اجتماعيين:

الدور الأول: وهو فترة ما قبل التصعلك تلك الفترة التي كان الصعلوك فيها عضواً عاملاً في المجتمع القبلي قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة التي يبدأ من عندها الطور الثاني في حياته الاجتماعية، وهو فترة تصعلكه التي قد تستمر حتى مقتله أو موته.

وليس يعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه، فهو في هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول.

ومن الطبيعي أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية في الدور الأول، فشاركوا شعراء قبائلهم في حياتهم الفنية، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثاني بالعودة إلى الحياة القبلية..".

قلت : هذا طرح من أستاذنا الدكتور خليف رحمه الله قد شابه الشطط – فيما أتصور ، إذ انبني على استجلاب تصور يناقض حقيقة أن الواقع الفني يصعد وينزل مع الواقع النفسي للمبدع ، والواقع النفسي للمبدع مرتبط تمام الارتباط بالسياقات المجتمعية التي تحكمه ، وهي التي ألزمته – في شأن الصعاليك بأن يعيش الانتماء في الاغتراب وبهذا التصور يصير الاغتراب شعورًا يطرأ لأسباب ودواع، فإذا ما انتهت هذه الأسباب، وتلك الدواعي مات هذا الشعور، وربما عاد

الفرد بعد ذلك إلى الانصهار في الكيان الجماعي، ولعل ذلك هو الـذي دفع الدكتور/ فخري الدباغ إلى أن يقول: ".. كُلٌّ إلى جَمَاعته مُنْتَمٍ، فإن شَذَّ فَلِغَايَةٍ، وإلا فهو المرض النَّفْسانيّ..." (١) وذلك أن للانتمـاء عنـده "...لا يتعدى أن يكون رغبة في التعبير عن السخط والثورة، أو مظهرًا من مظاهر الضياع والفوضى، أو رغبة في الإصلاح والتغيير ... و... فالمصلح يغترب، ويعتزل، ويفكر ليعود إلى جماعته، فيحاول تغيير ما بها، ثم هو يعبر عما قاله أرخميدس يومًا: "... أعطني مكانًـا خـارج الأرض، وأنا أُحَرّك الأرض"، أي لا ينتمي لفترة من زمن، لكي يحرك ويفيد، وهكذا يحرك الممتازون عجلة التاريخ. والسـاخط، والمتمـرد يغترب، ويعتزل أو يستنكر ناحية خاصة في مجتمعه، لكنه يعود إليـه، ويعبر عن سخطه ولا انتمائه في "أدب ساخط" أو "فن متمـرد"..." (٢)، فحالة الاغتراب والرفض لأطر المجتمع ومتعارفاته حالـة موقوتـة (٣) تستمد عمرها من عمر أسبابها.

وأنت حين تنظر إلى مجموعة الشعراء الصعاليك- "... وقد كانوا أبْرَز وَجْه للتمرد بالشـعر علـى مسـتوى اجتمـاعي" (٤)- أو شـعر الخوارج- "وقد كانوا متمردين من غير شك، ومتمردين على مسـتوى

(١) الانتماء. د/ فخري الدباغ. مقال نشر بمجلة العربـي. العـدد (١٢٤) مـارس ١٩٦٩، ص ٧٠.

(٢) السابق ص٧٣.

(٣) في هذا التصور انظر أيضًا (الأديب والالتزام) د/ نوري القيسي. دار الحرية. بغداد ١٤٠٠= ١٩٧٩م ص١٩٠.

(٤) دراسات في الشعر د/ محمد العزب ص١٣.

سياسي له ظل من قداسة عقائدية غير ناضبة الإيحاء" [١]..." حين تنظر في شعر هاتين الطائفتين – قبل التصعلك والخروج – تراهم أفرادًا قد كانوا يحيون داخل المجتمع ، ويتهالكون في الحفاظ عليه، وعلى نظمه، حتى جدت الأسباب الداعية إلى الصعلكة والخروج، فكان الضيق والتمرد والرفض والثورة، وإعلان الشعور بالانفصال عن المجتمع جسدًا وروحًا.

ثم لا ثم إلا النص على حقيقة أن أغلب التجارب الشعرية في عالم الصعلكة قد انطلقت من بين ثنايا الانتماء وإن عالجت– في الظاهر– حالة من الاغتراب حادة عنيفة.

وبالله التوفيق، ومنه السداد،،،

أ. د/ شوادفي أحمد السيد علام

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

(١) السابق ص١٣.

فهرس المصادر والمراجع

١ــ حكمة التمرد . د/ جابر عصفور ــ مقال بمجلة العربي ــ عدد ٤٤٤ ــ نوفمبر ١٩٩٥م .

٢ــ شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . د/ عبد الحليم حفني ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٩م .

٣ــ شعر قيس بن الحدادية . صنعة د/ حاتم الضامن ــ مجلة المورد وزارة الثقافة بالعراق ــ المجلد الثامن ــ العدد الثاني ــ صيف ١٩٧٩م .

٤ــ شعرنا القديم والنقد الجديد . د/ وهب رومية ــ عالم المعرفة ٢٠٧ ــ الكويت ١٩٩٦م .

٥ــ الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي . د / مصعب حسون الراوي ــ طبع دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ــ الأولى ١٩٨٩م .

٦ــ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . د / يوسف خليف ــ دار المعارف ــ سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية رقم٨ ــ الطبعة الرابعة .

٧ــ في الأدب العربي القديم . د/ محمد صالح الشنطي ــ طبعة دار الأندلس للنشر والتوزيع ــ الطبعة الثانية ١٩٩٧م .

٨ــ كتاب شرح أشعار الهذليين . صنعة أبي سعيد السكري ــ تحقيق / عبد الستار فراج ــ مراجعة / محمود شاكر ــ طبع المدني .

٩ــ موسوعة الشعر العربي . اختيار / مطاع صفدي ، إيلي حاوي شركة خياط للكتب والنشر .